أبو نواس

طلبت مني مديرية المناهج في دائرة الاذاعة أن أسجل لها حديثاً في موضوع أدبي ممتع يذاع في التلفاز أو المذياع ، فأخترت لذلك التحدث عن أبي نواس لأن ميدان الإمتاع فيه واسع والمؤانسة به لذيذة ، ولأنه الطابع الذي اشتهر للأديب البغدادي، مثل كتاب ألف ليلة وليلة الذي اشتهر في تمثيل الحياة الاجتماعية في بغداد . فسيرة أبي نواس تمثل الأديب البغدادي المرح المتحرر السمح المؤانس ، غير المتكبر المغرور ولا المتعجرف المتصنع ، الذي ملك ناصية اللغة مشهورها وغريبها ، وأثار المعاني العجيبة من مكامنها .

و « نواس » تلفظ بضم النون وتخفيف الواو . والعامة تلفظها بفتح النون وتشديد الواو . وبعضهم يلفظها بضم النون بعدها همزة (نؤاس) وكلا اللفظين غلط .

وأبو نواس كنية هذا الأديب البغدادي الفذ ، واسمه الحسن بن هانيء من حَكَمَ قبيلة كبيرة باليمن منهم عبد الله الحكمي الذي كان أميراً على خراسان . فهو أديب عربي صريح قحطاني فحّ بغدادي شعبي ، على رغم أنف الشعوبية الذين لم يرق لهم أن ينسب إلى العرب كثير من مشاهير العلماء والأدباء والفقهاء والحكما والمؤرخين ، فشرقوا بنسب أبي نواس وغربوا كما فعلوا في ذلك بغيره من فحول ذوي الفطنة والعلم والأدب والحكمة ، حسداً من عند انفسهم وطمعاً في إشباع حقدهم وطعناً فاشلا في المدنية العربية . فاذا ذكرت لهم أبا الفرج علياً الاصفهاني صاحب الأغاني قالوا إنه فارسي وهو قرشي أموي وإذا ذكرت بديع الزمان الهمداني قالوا إنه فارسي أو تركي ودرعماني ، وإذا ذكرت الامام مسلماً صاحب الصحيح المشهور : أحد الصحاح الستة ، قالوا إنه تركي وهو من قشير قبيلة عربية قطنت خراسان

أوبلخ . وهكذا حالهم مع كل عربي شهير راسخ في العلم والأدب . فليس بدعاً من الأمر أن يذهب الشعوبية بنسب أبي نواس كل مذهب استناداً إلى روايات ضعيفة اختلقها حاسدوه والحاقدون عليه في عصره . فقد اشتهر بالأدب الرفيع ، وكانت له مكانة في البلاط العباسي في بغداد ، ينادم الخلفاء ويجالس ذوي الجاه العريض والمنازل العالية في دار الخلافة وعاصمة الملك ، كما كان شعبياً خفيف الروح خفيف الظل ، ثقيل الوزن في الأدب ثقيل الوزن في الثقافة العامة . فكان محبوباً من سائر طبقات الشعب عامتهم وبداعهم وبجاريهم ، حتى نسبوا اليه كثيراً من أمور العبث والمجون ، وحتى عده بعض العوام خليعاً مضحكاً يروى عنه قصص الخلاعة والاحاديث المضحكة والنوادر الغريبة ، وهو لم يكن بهذه المنزلة من الحطة ولكن شعبيته وحلاوة روحه دعت العوام أن يضعوه في هذا الموضع . وكان محسوداً في نعمته وما حباه الله تعالى من ميزات نادرة . والمحسود تُلصق به مفتريات النقائص وغرائب النقائض ويلاحق في نفسه وفي شرفه وفي عرضه وفي كل مقدساته ، بغية اسقاطه إشفاءاً لغيظ قلوب مريضة وإطفاءاً لنيران الحقد والحسد . وهكذا كان أمر أبي نواس مع اقرانه وأترابه ومعارفه بين الناس . فوصفوه بافظع الرذائل ونسبوه إلى الخوزتارة وإلى الفرس أخرى إبعاداً به عن شرف العروبة . وألصقوا به أكذب الأحاديث وأحط الأفعال ، ولم يتورعوا في القول فيه شططاً ، ولم يراعوا فيه إلاً ولا ذمة . وهو الأديب الممتاز ، والشاعر الفحل ، واللغوي الجامع والراوي الثقة ، والمحدث الذي يستوعي الأسماع حديثه ويأخذ بمجامع القلوب ، قال ابن الأعرابي اللغوي النحوي الشاعر المشهور : لولا أن أبا نواس وضع نفسه لاستشهدت بشعره ولاحتججت به . وقال ختمت الشعر بشعر أبي نواس فلم أرو بعده لشاعر . وقال ابن خالويه النحوي إمام اللغة العربية في عصره : لولا ما غلب على أبي نواس من الهزل لاستشهدت بكلامه في كتاب الله تعالى وذلك لأنه تعلم اللغة من اساطينها ورحل إلى البادية فاخذ عن العرب وحفظ لغاتهم وأتقنها . وقال الجاحظ : ما رأيت أحداً كان أعلم باللغة من أبي نواس .

ولا افصح لهجة منه مع حلاوة ومجانبة لا ستكراه . قرأ القرآن على يعقوب الحضرمي من شيوخ القراء في البصرة . فلما حذق القرآن رمى اليه يعقوب بخاتمه وقال له : أذهب فأنت أقرأ أهل البصرة . وكفى بشهادة هؤلاء الأعلام دلالة على علمه وأدبه وفضله .

نشأ أبو نواس في البصرة ، فهو بصري والبصرة أن تفخر به . قال الجاحظ لما شب أبو نواس سلمته أمه إلى برّاء يبري عود البخور ثم كبر وتأدب وصحب أهل المسجد والمجان . واشتهى الكلام (أي علم الكلام) فقعد إلى أصحابه أي (علماء علم الكلام) فتعلم منهم شيئاً من الكلام ثم دعاه ذلك إلى الزندقة ثم مجن في شعره ، وشخص إلى مدينة السلام فاقام بها وعاشر الملوك فخلط منه مجونه ، ووضعه خبث لسانه وشغبه وعبثه — وفي كلامه هذا شيء من التحامل عليه — . أخذ عن أبي عبيدة أخبار العرب وأيام الناس وأخذ الشعر عن خلف الأحمر وأخذ الغريب عن أبي زيد . وطلب الحديث فكتب عن عبد الواحد بن زياد ويحيى القطان وأزهر السمان ، وهؤلاء الثلاثة من شيوخ الحديث ، حفاظ ثقات في رواية الحديث ودرايته . وجميع شيوخه الذين ذكرت أسماءهم من العلماء الراسخين فيما اشتهروا به من فصول الأدب والعلم .

وقد مهر في الشعر حتى فاق فيه أقرانه وأصبح حجة فيه . وقد رويت لك عن شيوخ الأدب ما يؤيد ذلك . سئل بن السكيت وكان عالماً بالقراءة والنحو واللغة والشعر ، عما يختار روايته من أشعار الشعراء ، فقال إذا أردت من الجاهليين فلامرىء القيس والأعشى ، ومن الاسلاميين فلجرير والفرزدق ، ومن المحدثين فلابي نواس فحسبك . وقيل للعتبي من أشعر الناس قال أعند الناس أم عندي ؟ قيل له عند الناس ، قال امرىء القيس قيل له فعندك قال أبو نواس ، وسئل أبو تمام عن شعر أبي نواس كيف هو عنده فقال أبو نواس ومسلم بن الوليد اللات والعزى وأنا اعبدهما . وقال أبو نواس عن نفسه ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة من العرب دهين الخلساء وليلى فما ظنك بالرجال ، وإني لاروي سبعمائة أرجوزة

ما تعرف . وكان يعمل القصيدة ثم يتركها أياما ثم يعرضها على نفسه فيسقط كثيراً منها ويترك باقيها . ولا يسره كل ما يقذف به خاطره . وقال بعض الثقات لم يكن شاعر في عصر أبي نواس إلا وهو يحسده لميل الناس اليه وشهوتهم لمعاشرته وبعد صيته وظرف لسانه . وذكر أبو نواس عند الثوري وهو من الأئمة الأعلام في الحديث فوضع فيه بعض الحاضرين فقال له الثوري أتقول هذا لرجل يقول :

يخافه الناس ويرجونه كأنه الجنة والنار

ويقول :

فما فاته جود ولا حل دونه ولكن يصير الجود حيث يصير

ويقول :

فتمشت في مفاصلهم كتمشي الزُهر في السَقم

فهو الأديب العربي العريق في الأدب العالي ، البصري ثم البغدادي الذي شهد بفضله العدول ، وأقر بسبقه وأنه نسيج وحده الفحول .

شطر أيامه إلى شطرين وعبر في سيره في الحياة جسرين جسر الشباب وقد أستنفد فيه ما تهواه نفسه وتقر به عينه ، فداعب وتغازل وأنتشى وأصطاد وهزل ولعب وعبث وضحك كثيراً ومدح وهجا . وهذه المرحلة من حياته هي موطن الضعف فيه . فلما وصل إلى جسر الكهولة آب إلى رشده فندم على ما فرط منه فاستغفر ربه وأناب اليه وسبّح بحمده . وأعلن ندمه بقوله :

ولقد لهوت مع الغواة بدلوهم وأخذت سرح اللهو حيث أساموا

وفعلت ما فعل أمرء بشبابه فاذا عصارة كل ذاك آثام

ثم مشى وهو يستجدي عفو الله من عثراته بقوله :

يا كبير الذنب عفو الله من ذنبك أكبر

ويحدث نفسه بأن الدنيا التي خدعته مباهجهـــا وأغرته زينتها عدوّ منـافق وخدين غدّار فيقول :

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت ... له عن عدو في ثيـاب صديق

وأدرك أن بقاء المال من المحال وان المرء سائر إلى الزوال فقال :

وما الناس إلا هالك وابن هالك ... وذو نسب في الهالـكين عريق

اندفع في المرحلة الأولى من عمره في متاهات الشباب فدخل باب الخمر واللهو وهو يقـول :

دع عنك لومي فان اللوم إغراء ... وداوني بالتي كانت هي الداء

صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها ... لو مسها حجر مسته سـراء

إلى أن يقول :

قامت بابريقها والليل معتـكر ... فلاح من ضوئها في البيت لألاء

ويقول :

ودار ندامى عطلوها وأدلجوا ... بها أثر منهم جديد ودارس

مساحب من جر الزقاق على الثرى ... وأضغاثُ ريحان جني ويابس

حبست بها صحبي وجددت عهدهم ... وإني على أمثال تلك لحابس

تدار علينا الكأس في عسجدية ... حبتها بأنواع التصاوير فارس

قرارتها كسرى وفي جنباتهـــا ... مهى تدّريها بالقسي الفوارس

فالخمر ما زرت عليه جيوبها ... والماء ما دارت عليه القلانس

ثم خرج منها إلى مرحلته الثانية وهو يقول :

يأبى الفتى إلا اتباع الهوى ... ومنهـج الحق له واضـح

من اتقى الله فـذاك الذي ... سبق إليه المتجر الرابح

شمر فما في الدين أغلوطـــة ورُح بنا أنت له رائح

ويقـول :

يارب إن عظمت ذنوبي كثرة فلقد علمت بأن عفوك أعظم
إن كان لا يرجوك إلا محسن فبمن يلوذ ويستجير المجرم
أدعوك رب كما أمرت تضرعاً فاذا رددت يدي فمن ذا يرحم
مالي إليك وسيلة إلا الرجا وجميـل عفوك ثم أني مسلم

ويقـول :

ما حجتي فيما أتيت وما قولي لربي بل وما عـذري
ألّا أكون قصدت رشدي أو أقبلت ما استدبرت من أمري
يأسوأتا مما اكتسبت ويا أسفي على ما فات من عمري

ويقول حين حج :

لبيك ما أعـبدك مليك كل من ملك
لبيك ان الحمد لك والملك لا شريك لك
كل نبي ومـلك سبح أو لبى فلك
لبيك أن الحمد لك والملك لا شريك لك
والليـل لما أن حلك والسابحات في الفلك
على مجـاري المنسـلك لبيك أن الحمد لك
والملك لا شريك لك يا خالقـاً ما أغفلك
إعمـل وبادر أجلك وأختم بخير عملك
لبيك إن الحمد لك والملك لا شريك لك

ويقـول :

أيا من بين باطيـــة وزقّ ... وعـــود في يدي غانٍ مغنّي
إذا لم تنه نفسك عن هواها ... وتحسن صونها فاليك عني
فاني قد شبعت من المعاصي ... ومن إدمانهـا وشبعن مني
وما أسوا وأقبح من لبيب ... يرى متطرباً في مثل سنّي

أتهموه بالزندقة فقال ويلكم والله أني أعلم ما تقولون ولكن المجون يفرط علي وأرجو أن أتوب فيرحمني الله تعالى ـ أي أنما يفرط مني مما يفهم منه خروجي عن حدود أدبي سببه إفراط المجون والهزل عليّ ـ . وأحضره الأمين مستنطقاً إياه ليتأكد مما أتهم به فقال مرتجلاً :

أصلي صلاة الخمس في حين وقتها ... وأشهد بالتوحيد لله خاضعاً
وفي كل عام صوم شهر أقيمه ... وما زلت للأنداد والشرك خالعاً

هذه نبذة من سيرة أبي نواس وخبرته الاجتماعية وما استقر عليه من السلوك المستقيم بعد ما قطع تيارات الشباب . فهو المجرب الذي يستفيد الشبان من ثمرة تجاربه فلا تغريهم شرّة الشباب الجامحة ، ولا نزواته العابرة . ولا يسع حديث داعي التوسع في التحدث عن أبي نواس بأكثر من هذا . والحديث المفصل عنه في علمه وأدبه وجده وهزله ومجونه وصدقه ، يستوعب مجلداً ضخماً ومن الله التوفيق .

منير القاضي